المقدمة

عفواً.. أستاذنا العزيز.. هيكل.!!

.. نختلف.. أو نتفق حول الرجل..

لكننا في النهاية لابد أن نعترف بقيمته الرمزية في حياتنا..

.. نختلف أو نتفق مع ما كتب..

لكننا في النهاية لابد أن نعترف بأهمية.. واختلاف ما كل ما يحمل اسمه ككاتب..

.. نختلف حول مؤلفاته.. لكن لابد أن نقرأها..

إنه **(هيكل)**.."**الأستاذ**".. كما يطلق عليه تلامذته.. ومعجبوه.. الرجل الذي كان مقاله الأسبوعي "**بصراحة**" قادراً على أن يهز العالم العربي من المحيط إلى الخليج..

و"**المتناقض**" كما يسميه رافضوه.. والذي يملأ اسمه الدنيا ضجةً.. وضجيجاً..

الفريق الأول يبجلونه وينزلونه منزلة التقديس والعصمة.. وهو في نظرهم دوماً الأكثر مصداقية.. والتزاماً..

والفريق الثاني ممن يهاجمونه.. ويختلفون معه دوماً.. يتهمونه بكل شيء بدءاً من تزوير الحقائق.. وانتهاءاً بالعمالة..

obeikandl.com

ولعل السؤال الذي يشغل بال الجميع هو:

هل يروي (هيكل) التاريخ بحقائقه.. وكما هو دون إضافة.. أو حذف.. أو تجميل؟

أم أنه يسعى لتخليد شخصه.. وحقبة الناصرية التى يُعدُ هو مُنظرُها الأول؟

تلك الحقبة التى امتدت تقريباً من قبل منتصف الخمسينيات وحتى أوائل السبعينيات.. وشهدت بزوغ نجمه.. وقربه اللصيق بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. والتى كانت تموج دوماً بكل أشكال الحروب.. ساخنةً وباردةً.. واشتعال الأزمات السياسية في المنطقة العربية.. وعلى الساحة الدولية.. كما شهدت أقصى مد للقومية العربية بكل تجلياتها.

مؤيدو الرجل كانوا دوماً يصفونه بأنه المُحدث الأول عن وقائع وتفاصيل تلك الفترة الحساسة.. فهو يتحدث من خلال نوع نادر من الصداقة جمعت بين رجل دولة ممثلاً في شخص الرئيس جمال عبد الناصر.. وبين صحفي ممثلاً في شخص (هيكل).. لذا فهى صداقة استثنائية بكل المقاييس.

أما رافضوه فيقولون أنه يذهب بعيداً عن مرفأ الحقيقة.. وأحياناً لا تسعفه الذاكرة فهو يعزي الكثير من الأحداث إلى نفسه وكونه بطل الحدث بلا منازع.. وهذه طبيعة النفس البشرية التى تتوق دائماً إلى حب ذكر الذات.

وبين الفريقين نحاول نحن أن نقول كلمتنا من خلال هذا الكتاب الذى اخترنا له عنوان **(هيكل.. ضد هيكل)**.. محاولين الاقتراب ما وسعنا الجهد من ذلك الخط الأحمر في تجربة الأستاذ.. بلا افتراء.. وبلا توجه مسبق.. منحازين فقط للموضوعية في رصد تلك التجربة تاريخياً.. وتحليلياً.. تاركين (الأستاذ) ممسكاً هو بدفة الأحداث.. ليوجهها وفقاً لما قاله - وما زال يقوله ويكتبه - من حقائق وموضعات.. وأقول أننا كجيلٍ (١) كمحظوظ لأنه عاش وتجربة (هيكل) - أمدَ الله في عمره - حاضرة.. فعايش جزءاً منها.. وقرأ عن أجزاءٍ سبقته عمرياً.. وحاول أن يضع الأستاذ وتجربته فوق ميزان العقلانية.. ليُقيم.. ويرفض.. ويقبل وفقاً لمعطيات الاقتناع.. فلا أقول أنه اصطدم

---

(١) اتحدث هنا عن نفسي ليس بوصفي كاتباً.. ولكن بوصفي قارئاً.. ومواطن مهتم بقضايا وطنه العربي يحاول التواصل معها وفهمها من خلال كتابات الأستاذ محمد حسنين هيكل وغيره من الأستاذة والكتاب.. اتحدث عن الحيرة التى نعيشها نحن كجيلٍ يُطلق عليه في تاريخ مصر والعروبة (جيل أكتوبر) الذى أدرك سن الوعي والفهم مع أحداث النصر العظيم.. وعندما تفتحت مداركه أكثر أدرك أنه لم يعش قبل النصر محنة الهزيمة في نكسة يونيو ١٩٦٧ فحاول التعايش معها وفهمها لتكتمل لديه الصورة بالقراءة من خلال كتابات هيكل وآخرين..**(المؤلف).**

بضِدية (هيكل) في كثيرٍ مما قال.. بقدر ما تيقن من كون الحقيقة دائماً متعددة الوجوه..

نعم (هيكل) بشرٌ.. وليس نبي..

من حقه أن يُخطىء.. لأنه لا بشر بلا أخطاء..

ولكن ليس من حقه احتكار (**الحقيقة**) فيما يقول..

والغريب أن (هيكل) لم يقترب أبداً من الشعوب التى انفرد بصداقة زعماءها.. لم يعبر يوماً عن المعاناة الحقيقية وأحلام الشعب العربي.. والمصري.. لم يتعايش مع آلامهم.. ولا أمالهم.. ادخر كل ذلك فقط لبلاط الحكم والجالسين على كراسيه.. دوماً كان منحازاً فقط للطبقة العليا من الوطن.. بالرغم من أن أولويات مهنة الصحافة هى التعبير عن واقع الأمم.. ومراقبة الحكام.. فعَكَسَ أستاذُنا القاعدة.. ووَظَفَ قلمه للتعبير عن الحكام.. ومراقبة واقع الأمم من بعيدٍ لبعيد..

ومن المؤكد أن قربه الدائم من الحُكام.. والوزراء.. والقادة.. ليس في مصر فقط.. بل في كافة دول العالم.. قد ساعده على ذلك.. فهو صديق الرؤساء.. ونديم الزعماء.. يجالس هذا في شرفة قصره الحاكم.. ويركب مع ذاك طائرته الخاصة.. ويلاعب هذا جولف.. وذاك يهديه أفخر أنواع السيجار.. وكأن الرجل - إمبراطور دولة الصحافة الأوحد - وهنا قد يأخنا هذا التعبير المجازى لنتخيل أن كاتبنا كان من بين أحلامه أن يُصبح ملكاً ذات يوم.. وعندما لم يجد مملكةً يحكمها.. اختار أن يصنع من مهنته مملكةً خاصة.. استطاع بذكاءٍ شديد أن ينفرد بحكمها على مدار عقودٍ عديدة.. بل واستطاع إجبار الآخرين على الاعتراف له بذلك.. فجلس وتربع على عرش صاحبة الجلالة.. ممسكاً بيده صولجان الكلمة.. حابساً أنفاس الحقيقة في خزانة وثائقه الخاصة التى لا يملك مافيها.. ولا يعرف مكانها سواه..

ولم يكتفِ بالتعبير عن أصدقاءه من الحُكام.. وتبرير أفعالهم وحسب.. بل تعامل معهم بمنطق الولاء المطلق لكل من يقدره على هذا النحو.. بينما كل من عاداه أو تجاهل مركزه الصحفي - كإمبراطور - ناصبه العداء المطلق.. حتى وإن جمعتهم

الصداقة ذات يوم.. ولا أدل على ذلك من موقفه مع الرئيس السادات.. وما ذكره عنه.. وعن أسرته.. وأمه.. وأبيه.. في كتابه الأشهر (خريف الغضب) [1]

...

لكن نعود ونأكد برغم كل ما قيل تبقى الحقيقة التى لا ينكرها أحدٌ أن (هيكل).. سيظل هو الأهم.. والأكثر جدلاً بين صحفيي.. وكُتاب تاريخنا العربى المعاصر.. مستنداً في ذلك على خبرته.. وتاريخه.. وتجربته المتفردة.

ونقول لكل (**ال(هيكل)ين**) ونحن من قبلهم: أنه مهما كان حبنا واحترامنا للأستاذ (هيكل).. وتقديرنا لتجربته.. لكن يجب أن يبقى حبنا لله.. ثم الوطن والتاريخ.. والحقيقة أكبر.

ونتوقف لنبدأ رحلتنا عبر صفحات هذا الكتاب مؤكدين ثانيةً أن مساحة الصدق من الإدعاء في تجربة (هيكل) هى ما نبتغى الوقوف عنده لرصده.. واعدين القارئ بأن نترك الحقيقة فقط لتتحدث.. لن نرفع راية الرفض.. ولن ننكس راية الإعجاب.. بل سنبحر معاً بلا تناقض.. ولا أحكام مسبقة عبر "تجربة حياة" الأستاذ.. وسط أمواج التجربة.. إنسانياً.. وصحفياً.. لنرى إلى أين ستقودنا.. وهيا نبدأ معاً رحلتنا مع كاتبنا الكبير..

عصام عبد الفتاح
elbtrawy@yahoo.com

(١) للأسف وحتى لا نكرر أقوال: وصلت لغة الخطاب في هذا الكتاب تحديداً إلى مستوى السقطات.. فأمه أو جدته - أى السادات - سوداء.. وكأن هذا ذنبها الذى يُعير به ابنها.. وكأن زيبة الصلاة التى كانت تتصدر وجه السادات كانت من لوازم ماكياج الحكم.. وكان الأولى بأستاذنا أن يترفع بنفسه.. ويسمو عن السقوط.. والتردى إلى مثل هذا المنحدر.. وحتى لا يُساء فهم ما نقول.. نؤكد أننا غير (ساداتيين) وغير مدافعين عن الرئيس الراحل.. بل بالعكس فلنا عليه من الملاحظات والمآخذالموضوعية الكثير.. وهذا رأينا الشخصي الذى لا نفرضه على القارئ.. لذا آثرنا توضيحه حتى لا نُحسب على تيارٍ بعينه.

obeikandl.com

تمهيد

الحتمية التاريخية في كتابات هيكل..!!

هناك نظرية تاريخية معروفة يسميها المؤرخون نظرية.. أو قانون "**الحتمية التاريخية**".. وهى عبارة عن مذهب فلسفي سياسي قديم.. قائم على القول بأن للحوادث التاريخية نظاماً منطقياً تترتب فيه العناصر بشكل يكون فيه كل منها متعلقاً بغيره من أحداث.. ولعلها إحدى التطبيقات المباشرة لنظريتين تاريخيتين أُخريين إحداهما تقول (التاريخ يعيد نفسه).. والأخرى تقول العكس وبأن التاريخ لا يعيد نفسه.

وفي كل ما كتب الأستاذ (محمد حسنين هيكل) نجده سواء بقصدٍ.. أو بدون قصد يُسلم تسليماً تاماً بتلك النظرية.. لكن في إطار فهمه الخاص لها.. فنجده مثلاً يقول في مقدمة كتابه "**زيارة جديدة إلى التاريخ**":

صحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه رغم اختلاف ظروف الناس والأمم والأحوال.. ولكن أليس صحيحًا أيضاً أن هناك ثمة قوانين للتاريخ.. وأن هذه القوانين تعمل أحكامها إذا تجمعت عناصر وعوامل تستدعى مثل هذه الأحكام؟!

openkandil.com

وفي مقدمة نفس الكتاب المشار إليه نجد (هيكل) يؤمن تماماً بالفكر الماركسي النابع من نظرية (كارل ماركس)[1] التي تقول:

"إن التاريخ لا يعيد نفسه.. وإذا فعل فإنه في المرة الأولى مأساة عظيمة وفي المرة الثانية ملهاة مضحكة" لكنه من الحق أيضاً أن نفرق بين عودة الماضى - وهى مستحيلة - وبين سريان قوانين التاريخ - وهى محققة

بينما تنص النظرية في وجهها الآخر على أنه إذا عُرِفَ ارتباط كل عنصر حدثي أو تاريخي بغيره من العناصر.. أمكن التنبؤ به وبأحداثه.

وبشكل عام ينقسم فلاسفة الحتمية التاريخية إلى قسمين:

- الأول: يؤمن بالحتمية التاريخية المطلقة التي تعني أن أحداث التاريخ حدثت كلها.. وتحدث وستحدث حسب قوانين التاريخ التي لا سيطرة للإنسان عليها.. وأن الإنسان منفصل فيها ومتأثر.. لا فاعل ومؤثر وأن الحرية الإنسانية لا وجود لها.
- والثاني: يقول بأن أحداث التاريخ إنما تحدث وفقاً لقوانين التاريخ.. لا رغما عنها.. ولا يمكن أن تُخالفها.. ولكن هذه القوانين لا تجعل أي حدث تاريخي حتما محتوما قبل حصوله.. إلا إذا وجدت القوة الإنسانية القادرة على تحقيقه.

وقد انطلقت الفكرة الماركسية من خلال إيمانها بالمادية التاريخية.. وهذه المادية تُخضع التاريخ بكل ما فيه من تغيرات وتطورات لقانون الحتمية التاريخية المتمثلة في صراع متناقضات الأشياء.. والذي يحرك عجلة الإنتاج نحو التطور في علاقات الإنتاج التي تحكم كل الأشياء.. وبذلك تكون الثورة التي تصنع التغيير ضرورة حتمية تفرضها طبيعة الأشياء في ظل الشروط الموضوعية التي تحتاج إليها عملية الصراع.

ووفقاً للتنظير الماركسي فإن الثورة في المادية التاريخية عنصر ضروري من عناصر صراع الطبقات عندما يؤول هذا النزاع بحكم الضرورة إلى صراع سياسي هدفه

---

(١) كارل ماركس أشهر فلاسفة القرن العشرين.. وهو كما هو معروف يهودي ألماني ولد.. وعاش بين عامي (١٨١٨ – ١٨٨٣) وكان ضعيف البصر .. متقلب المزاج .. حاقد على المجتمع بشكلٍ عام .. مادي النزعة .. له عديد من المؤلفات أشهرها كتابه (رأس المال) الذي ظهر سنة ١٨٦٧ ساعده في التنظير للمذهب الشيوعي والعمل علي نشره والدعاية له صديقه الحميم فردريك إنجلز(١٨٢٠ – ١٨٩٥) والمعروف أنه ظل ينفق على ماركس وعائلته حتى مات.. في ١٤ مارس ١٨٨٣ بلندن.

الاستيلاء على جهاز الحكومة لتجريد الطليعة المهيمنة على شؤون المجتمع من وسائل هذا الجهاز الذي تُسخره لخدمة أغراضها.

اليقظة = عودة الوعي

وفي مقدمة كتابه "**عروش وجيوش**" يقول (هيكل) عن الصراع في فلسطين:

(الأمم الكبيرة تحيا لكي تتذكر.. والأصح أنها تتذكر لكي تحيا لأن النسيان هو الموت.. أو درجة من درجاته.. في حين أن التذكر يقظة.. واليقظة حالة من حالات عودة الوعي.. قد تكون تمهيداً لفكر ربما يتحول إلى نية فعل.. ثم إلى فعل إذا استطاع أن يُرتب لنفسه موعداً مع العقل والإرادة في يوم قريب.. أو بعيد بمثل ما فعله المشروع الصهيوني على امتداد قرن كامل عاش نصفه مع الوعد.. ونصفه الآخر مع تحقيق الوعد).

ونلاحظ خلال هذه الفقرة أن محمد حسنين (هيكل) لا يجعل من الحتمية التاريخية سبباً للخمول والجمود والانطواء على الذات.. وتبرير الفشل.. والتداعى.. إنما يجعل من تصفح التاريخ وقراءته دافعاً لنهوض الأمم.. وتجديد واقعها.. وعدم تكرار الأخطاء.. وهو ما يسميه صمام أمان في المستقبل.

التاريخ من سفرٍ.. إلى خطر؟

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب:

(كان ظني دوماً أن الالتفات إلى الوراء ليس تلكوءاً مع الماضي.. وإنما هو ضرورة لسلامة السير بمثل ما يفعل سائق أي سيارة يريد لنفسه الأمان.. أمامه الطريق وهو منطلق بالسرعة التي يريدها.. ويُطل من نافذة بعرض سيارته على ماهو ممتد أمام عينيه لكنه أيضاً.. وفي الوقت نفسه محاطاً بمرايا عاكسة للخلف.. والجنب معلقة عند موقع نظره.. وهو مُطالب بألا يغفل نظره عن معالم الطريق أمامه لكن عينيه في الوقت نفسه على المرايا العاكسة لمراحل وراءه تجاوزها من الطريق.. ودون نافذة في المقدمة تطل على ماهو آت ودون مرايا عاكسة تلاحظ مافات فإن قيادة السيارة تتحول من سفر إلى خطر).

إذن إيمان كاتبنا بالتاريخ منهجاً.. جعله يعاود دائماً الرجوع إليه.. ليتحول دون قصدٍ منه إلى أسلوبٍ للفكر.. والتفكير.. ولابد أن نعى ذلك جيداً ونحن نقرأ ما يكتبه.. ونسمع ما يحكيه..

عموماً كان لابد لنا أن نُشير إلى هذا في البداية كمدخلٍ ضروريٍ.. وهام لنحاول من خلاله قراءة فكر (محمد حسنين هيكل) وكتاباته وفقاً لما عرفناه بمفهوم "الحتمية التاريخية" في تناول الأحداث.. وهو ما سوف نجعله إطارنا العام في هذا الكتاب.

❖❖❖

obeikandl.com